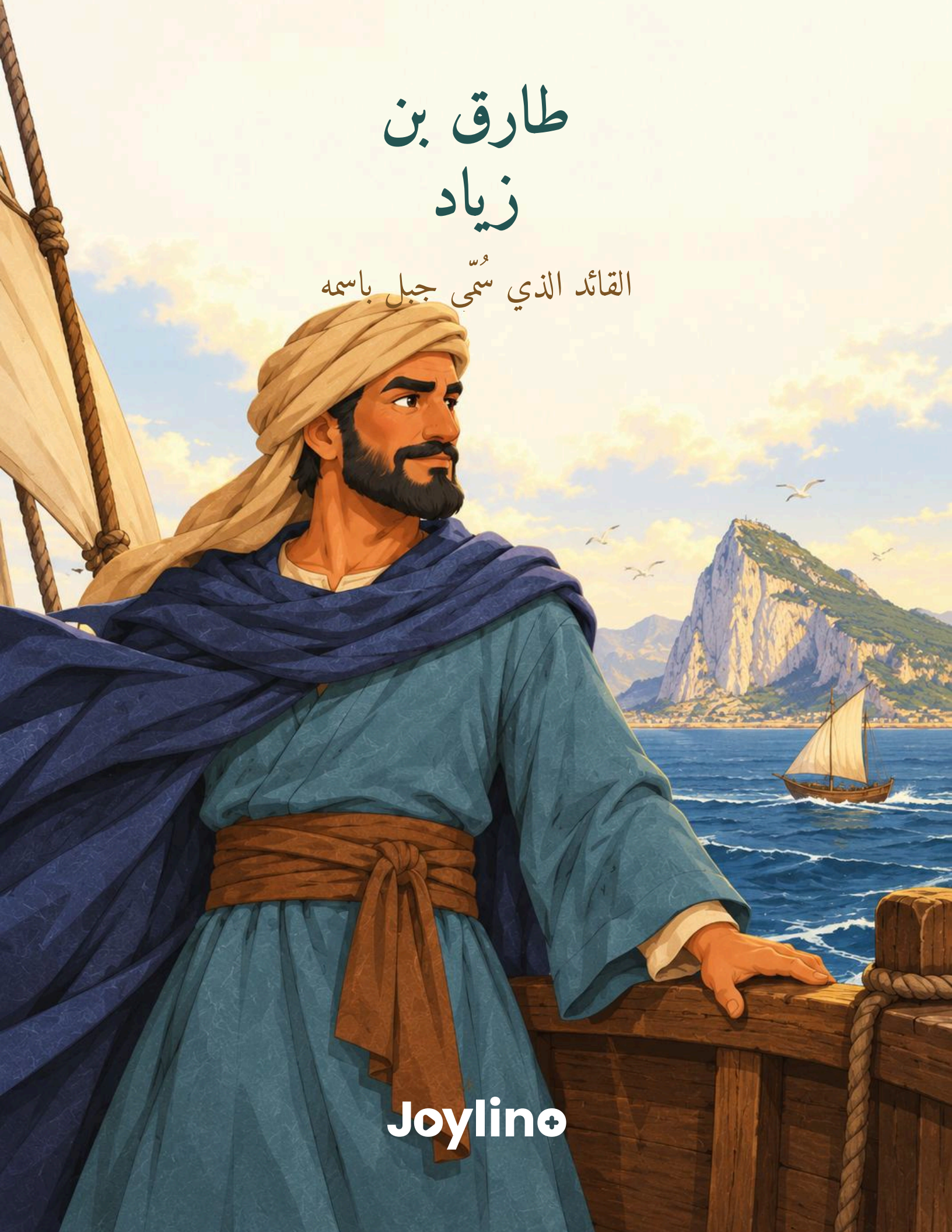


طارق بن زياد

القائد الذي سمي جبل باسمه



طارق بن زياد

القائد الذي سميَّ جبل باسمه

ارتفعت السفينة فوق موجة ثم هبطت من جديد. تناثر ماء البحر المالح على سطحها، وشدّت الحبال، وصرت ألواح الخشب. تمسّك جندي شاب بحافة السفينة بقوة أكبر. بدا الشاطئ المقابل خطًّا رفيعًا في ضباب الصباح. سأل: «هل بقي أمامنا طريق طويل؟»

أشار طارق بن زياد إلى الصخرة العالية عند الأفق. وقال: «انظر، هل ترى الشاطئ؟ سنصل إلى هناك». كان صوته هادئًا وسط الريح التي تملأ السفينة. رفع الجندي رأسه. قبل قليل، لم يكن يرى سوى الأمواج، أما الآن، فصار يرى أيضًا المكان الذي يقصدونه. ابتعد طارق عنه، وواصل الاطمئنان على رفاق الرحلة. كان مسؤولًا عن كل من في السفينة.



قبل أن تبدأ هذه الرحلة، كان طارق قائداً ناجحاً يعمل في شمال أفريقيا. اكتسب خبرة في الحملات التي شارك فيها، وتولى مسؤوليات مهمة. وكان والي شمال أفريقيا، موسى بن نصير، يثق بقدرته. وعندما بدأت الاستعدادات لحملة عبر البحر، اختار طارق لقيادة الجيش.

وراء البحر، امتدت شبه جزيرة كبيرة تقع فيها اليوم إسبانيا والبرتغال. والذهاب إليها يعني السير في طرق لا يعرفونها. لم تكن كل المسائل التي تنتظر طارق تُحل في ساحة المعركة. كيف سينقل الجنود؟ وكيف سيوصل الطعام؟ وأين سيجتمعون بعد وصولهم إلى الشاطئ؟ لقد بدأت الرحلة الكبيرة قبل أن تتحرك السفن بوقت طويل.



في ربيع عام 711، وصلت السفن إلى الشاطئ المقابل. الصخرة التي رآوها من بعيد طوال الرحلة أصبحت الآن ترتفع فوق رؤوسهم. حمل الجنود أمتعتهم إلى البر. وفتحت الأمتعة التي ابتلت، وحددت أماكن للراحة. تأمل طارق بن زياد التلال والممرات أمامهم بعناية.

بحسب إحدى الروايات، أمر طارق بن زياد بإحراق السفن بعد نزوله إلى البر، وخاطب جنوده قائلاً: «يا إخوتي المجاهدين! البحر وراءنا، والعدو أمامنا». لكن المؤرخين يختلفون بشأن إحراق السفن وهذا الخطاب، ولا نعرف على وجه اليقين إن كانا قد حدثا حقاً.

أما المؤكد، فهو أن طارق بن زياد عبر البحر بجيشه وبدأ حملة كبيرة. نظر الجندي الشاب إلى الصخرة الشاهقة فوقهم. بقي البحر وراءهم، وامتدت أمامهم طرق لم يعرفوها بعد. كان طارق بن زياد يستعد مع جنوده لهذه الرحلة الصعبة.



بحسب إحدى الروايات...
«يا إخوتي المجاهدين! البحر وراءنا، والعدو أمامنا.»

بينما كان الجيش يتقدم من الشاطئ إلى الداخل، بدأ الرسل يذهبون ويعودون. وكان أحد الأخبار مهماً جداً: رودريغو، ملك القوط الغربيين، يجمع جيشاً كبيراً. وكان يستعد لمواجهة طارق.

دعا طارق قاداته إليه. استمع إلى الأخبار، ودرس ما يحتاج إليه جيشه. ثم أرسل رسالة إلى موسى بن نصير يطلب فيها المساعدة. لن يتجاهل الصعوبة التي أمامه. وحين تسلم أحد رجاله الرسالة الجاهزة، قال له طارق قبل رحيله: «اشرح حالنا كاملة. ليعرفوا ما ينتظرنا وما نحتاج إليه». انطلق الرسول. أما في المعسكر، فاستمرت الاستعدادات. كان عليهم ألا يضيعوا أيام الانتظار.



ذات يوم، سُمعت أصوات الحراس. قوات جديدة قادمة من جهة الشاطئ! لقد استجاب موسى بن نصير لطلب طارق المساعدة. دخل الجنود المعسكر، وعليهم غبار الطريق الطويل. أفسح لهم رفاقهم مكاناً وقدموا لهم الماء.

التقى طارق القادة القادمين. ومع انضمام القوات الجديدة إلى الجيش، واصل استعداداته. كان عليهم أن يتعلموا كيف يتحركون معاً، وأن يعرف كل منهم مهمته. وعندما حل المساء، جلس رفيق جديد بجانب الجندي الشاب الذي عرفناه في بداية الرحلة. فحدثه الشاب عن الصخرة الكبيرة على الشاطئ المقابل. صار عددهم أكبر الآن. لكن المعركة التي تنتظرهم ما زالت صعبة. وشعر الجميع بأهمية أن يثق كل واحد منهم بمن إلى جانبه.



عندما جاء الصيف، وقف الجيشان وجهًا لوجه. ومن بعيد، كانت الدروع والرماح تلمع في الشمس. وقف طارق أمام جنوده. وكان كل من التفت إليه ينتظر إشارته.

قال: «لا تفرقوا. اعرفوا مهمتكم، واعتنوا بمن إلى جانبكم». ثم قاد حصانه إلى موقعه في مقدمة الجيش. لقد أمضى أيامًا في الاستعداد، وahan الآن وقت تنفيذ قراراته. تذكر الجندي الشاب ذلك الصوت الهادئ الذي سمعه خلال الرحلة في البحر. لم يكن يقف هذه المرة على سطح سفينة يتمايل، لكن قلبه كان يخفق بسرعة من جديد. لم يبعد عينيه عن قائده. وبعد قليل، امتلأ هدوء السهل بأصوات الجيشين وهما يتحركان.



كانت المعركة شديدة. ارتفع الغبار، واختلطت الأصوات. حتى وصول خبر من مكان إلى آخر كان يستغرق وقتاً. ظلّ طارق على اتصال بقادته، وهو يوجه جيشه. وكلما وصل رسول، انطلق آخر بمهمة جديدة.

وفي النهاية، هُزم جيش رودريغو. حقق طارق وجنوده نصراً كبيراً. وحين انتشر الخبر، أشرقت الوجوه المتعبة. لكن الفرح رافقه حزن على من فقدوهم. ساعدوا الجرحى، وجمعوا القوات التي تفرقت. استمر طارق في قيادة رجاله بعد المعركة، كما فعل في أشدّ لحظاتها ضجيجاً. لقد انفتحت أمامه الآن طرق جديدة.



بعد هذا النجاح، وزّع طارق جيشه على مهام مختلفة. توجه بعض قاداته إلى مدن أخرى، أما هو فتقدم نحو طليطلة. عبروا التلال والممرات في طريقهم. والبلاد التي كانت يوماً وراء الأفق أصبحت تنكشف أمامهم، مدينة بعد مدينة.

كانت طليطلة عاصمة مملكة القوط الغربيين. وكان استيلاء طارق عليها نجاحاً كبيراً. عندما عبر البحر مع جنوده، كان أمامه طريق مجهول. وها هو الآن في واحدة من أهم مدن الشاطئ المقابل. الجندي الشاب الذي بحث عن الشاطئ بقلق وهو في السفينة، نظر هذه المرة إلى أسوار المدينة. وفكر في الطريق الذي قطعوه: الأمواج، والصخرة، والانتظار، والمسير الطويل...



بعد مدة، عبر موسى بن نصير البحر بجيشه أيضًا. وتقدّم في مدن أخرى، ثم التقى طارق. كان لدى القائدين الكثير ليتحدثا عنه: الطرق التي قطعوها، والنجاحات التي حققوها، وما سيفعلونه بعد ذلك...

لم يتفقا في كل شيء. فقد اختلفا أيضًا حول المدى الذي ينبغي أن يبلغه طارق في تقدمه. ومع ذلك، واصلوا الفتوحات، وقاد كل منهما قوات مختلفة. واتسعت الأراضي التي أصبحت تحت حكم المسلمين. وستعرف هذه المناطق باسم الأندلس. الحملة التي بدأها طارق بعبور البحر أصبحت الآن بداية لتاريخ أوسع منه بكثير، يمتد زمنًا طويلًا.



في عام 714، جاء أمر من بعيد. استدعي طارق وموسى إلى دمشق، حيث كان الخليفة. حان وقت الاستعداد للسفر. غادر طارق الأراضي التي حقق فيها نجاحات كبيرة. والبحر الذي عبره قبل بضع سنوات أصبح الآن جزءًا من طريق العودة.

ما نعرفه عن بقية حياته قليل جدًا. لا نعرف على وجه اليقين ما كان يفكر فيه في تلك الأيام، ولا كيف أمضى سنواته الأخيرة. لكن أعماله لم تنس. فقد عبر البحر بجيشه، وهزم جيش مملكة قوية، وكان من رواد فتح كبير. ودخل اسم طارق بن زياد كتب التاريخ بوصفه قائدًا شجاعًا وماهرًا.



هل تتذكر تلك الصخرة الكبيرة التي ظهرت وسط الضباب في بداية الرحلة؟ حين رآها الجنود من السفينة، عرفوا أنهم اقتربوا من الشاطئ المقابل. وحتى بعد رحيل طارق، ظلّت الأمواج تضرب أسفل الصخرة.

مرّت السنوات، وتغيّرت السفن، وبدأت حياة جديدة على الشواطئ. وعرف ذلك المكان باسم «جبل طارق»، نسبةً إلى القائد. وفي لغات أخرى، تغيّر نطق الاسم مع الزمن حتى صار «جبرالتر». وهكذا، ظلّ اسم القائد حياً على الخرائط أيضاً.

في ذلك الصباح، رأى طارق بن زياد جبلاً على الشاطئ المقابل. وبعد قرون، وجد الناس طارق بن زياد في اسم ذلك الجبل.

